عابر ســـبيل

للأستاذ محمد سعيد العريان

قالت له نفسه الكريمة :

« سر يارفيقي على هداك حتى تبلغ ؛ لست من هذا الناس ، ما أنت فى الحياة إلا عابر سبيل . . . ! »

* * *

قُبَيْلَ أن يسفر الصبحُ من ليلة العيد ، استهلّ الصبيُّ صارخاً لأوّلِ ما يرى الدنيا ؛ وقالت القابلة : « يا بُشرى هذا غلام ! » فانبسطت وجوه ، وابتسمت شفاه ، ودبّ المرح فى جنبات الدار

وضمته أمه إلى صدرها النابض فقبلته وقالت : « ستكون سعيداً يابنيّ ؛ إن الحياة لَتبسم فى وجهك ؛ هذا يوم العيد أشرق صبحه ! »

وعاد « الشيخ » من المسجد يدبّ على عصاه ، فى لسانه تكبيرٌ وتسبيح ، وفى قلبه صلاةٌ قائمةٌ ودعاءٌ خاشع . واستقبلته ابنته بالبشرى : « إنه صبيّ يا أبتِ ! هل ترى أخى ؟ »

وأدنى الشيخ من جبين الصبيّ فماً يختلج بالشكر ؛ فقبّله والدمع يترقرق بين أهدابه ، والكلمات تحتبس فى لسانه ؛ وأطال النظر فى وجه الوليـد فقال : « لقد أبطأت طويلاً يابنيّ حتى أدركني الهَرَم ، ولكنى بك اليوم سعيد ! لئن كنت موشكاً أن أمضى إلى الدار الأخرى — إننى لحيٌّ بك فى دنياى جيلاً جديداً ؛ فَعِشْ واسعدْ ياولدى وابتسم للحياة ! » ورفع الشيخ رأسه إلى السماء وقال : « اللهم هذا دعائى لهذا ، وأنت أرحم الراحمين ! »

* * *

مضى الطفل يعدو وراء الأيام تجاذبه أثوابَ الطفولة ؛ فاذا هو غلام يلهو فى فناء الدار مع لِداتٍ من الصبيان

وقال له صبيٌّ : « ما هـذا معك يارفيقى ؟ » فانبسط وجه الغلام ، وقاسم الصبيان حلواه ومِلْبَاتِه ؛ وعرف الأطفال أن صاحبهم جواد ، فأقبلوا عليه واجتمعوا على وده . وهمس أحدهم فيمن يليه : « إن معه لكثيراً من ذاك ؛ » فتعوّد الأطفال أن يسرقوه !

ومضى الصبيّ إلى أبيه يبكى

— « ولدى ، ما يبكيك ؟ »

— « أبكى الملبات يا أبى ! »

— « غداً أعطيك غيرها يا بنيّ ؛ إن عنـد الله كثيراً من الملبات للأولاد الصالحين ! »

ونظر الغـلام إلى فطير فى أيدى صحابته فاشتهته نفسه ؛ أفيطلب أن يقاسمهم وما تعوّد ؟ ولكن أباه أخذه بألا ينظر إلى مافى أيدى الناس ؛ وكم علمه بالحكاية ، وكم ضرب له من الأمثال : أن الحيوان الضعيف هو الذى يعيش على مافى الأيدى ؟

ورأى الأطفال شهوته فى عينيه ؛ فاستخفوا منه يلتهمون مافى أيديهم !

* * *

وشبّ الغلام ، فدفعه أبوه إلى المدرسة ، وعلمه فى أول لياليه وقد رجع من مدرسته ؛ أن هؤلاء بإزاء أهلكَ هناك ؛ فأحسنْ فيهم رعاية الودّ ، وكن بينهم أخاً فى إخوانه . »

وقال له زميله فى المدرسة ذات يوم : « هل تعيننى على كتابة دَرْسى ؟ » فلما أعانه مضى الزميل وخلفه يعالج درسه وحده !

وسمع المعلم ذات مرّةٍ همساً بين تلميذين ؛ وكان جاره يطلب منه قلماً ؛ وغضب المعلم وصاح : « مَن يتحدّث ؟ » ولصقت التهمةُ بالمظلوم ، فتلقى الصفعةَ صامتاً وجاره يبتسم ؛ لم تكن ابتسامته من شماتة ، بل فرحاً بالنجاة من كفٍّ غليظة ؛

وفى الطريق شاغَب التلاميذُ فى أحد الأيام أعمى يدبّ على عكازه ، فلما توعدهم وهزّ لهم العصا ، فرّوا وبقى الغلام لأنه برىء ، فلم تنل عصا الرجل أحداً غيره ! لقد آلمته الضربةُ ولكنه تقدّم ليَهدى الرجلَ الطريق !

* * *

وأيفع الغلام ، واستدناه أبوه إليه وهو مطوىٌّ فى الفراش على نفسه من وهن الشيخوخة ؛ ولبث الشيخ طويلاً يصوّب النظر فى الغلام ويصعده ، ثم تكلم : « ليتك يابنيّ ملءُ عينيّ كما أراك ملء قلبى ! ولكنى أرى فى وجهك اليوم ما كانت

تُربى المرآةُ منذ عشراتٍ وعشرات ، فلا جرم أن تبصر يابنيّ فى مرآتك بعد عشراتٍ وعشراتٍ صورةَ أبيك ! ستكون أميراً ياولدى ؛ سيستجيب الله دعائى لك ، وما انقطع دعائى لك منذ ولدت ؛ فأحبِبّ الناس ، وَهبْ نفسك للجماعة ! كن رجلاً قوياً يا بنيّ ؛ كن للناس فيضَ الحب والرحمة ، ولا تستجد الحياةَ مالا تعطيك ؛ السعيد يا بنيّ من يعطى لا من يطلب العطاء ! »

وتكرّر هذا من أبيه أياماً ، كان يريد ألا يموت إلا وقد وضع نفسه فى ابنه !

ثم مضى أبوه فى رحلةٍ طويلة لا رجعة منها إلى هذه الدار . ياحسرتا ! هذا هو فى الفراش مسجًّى والنائحاتُ تنوح ! وأخفى الفتى عينيه يستر دمعه ، لقد علمه أبوه أن يكون جَلداً فليحفظ وَصاةَ أبيه

ونظر فى وجوه المشيعين فى الجنازة فما رأى بينهم رجلاً كالذى فقده ، فعلم أنه فَقدَه الى الأبد . وتصوَّر الدار الخلاءَ إلا من أمه وإخوانه . يا للفاجعة ! يجب أن يكون رَجل الدار ؛ لقد لقنه أبوه لمثل هذا اليوم دروس الرجولة منذ كان فى المهد صبياً . وهتف بالكلمة الغالية لآخر مرة : « يا أبى ! » وغلبه الدمع ، فاستعصم وعاد يقول : « ستنام هادئاً يا أبى ، فانى أنت هنا ! »

وعاد الى الدار مطرق الرأس ، ليضع يد الرجل الصغير فى أكفّ الرجال الكبار يشكرهم على ماجاءوا لتعزيته !

أجاءوا يُعزُّون (الرجل الصغير) أم جاءوا يُحصُون ما خلف الميتُ وأنفسهم تسيل طمعاً ؟

وقالت له أمه : « مابى خوف الوحدة وأنتَ لى ، فقم على الدار والدرس ؛ إن الرجولة تقتضيك أن تكون من أهل العلم والكرامة ، فقد كان أبوك عالماً كريماً . كن للناس ماكان أبوك : وجهاً طلقاً ، ونفساً سمحة ، ويداً معطية ، وقلباً يفيضَ بالحب !

* * *

وخُيل الى الغلام أنه الرجل ، وَطمْأنَهُ الى الناس أن أباه أوصاه بالناس ؛ فلم يردّ لأحدٍ طَلِبة ، وإنه ليحمل من هموم الناس أكثر مما يحمل من هموم نفسه ؛ مؤمناً بأنه يفعل واجبه للجماعة ، ويؤدّى دَينه للأنسانية ؛ مستيقناً أن الناس ستحمل عنه إذا نابَهُ همّ !

وقال له جاره يوماً : « إن دائنى يركب كتفى ، فهل عندك فضلٌ من المال الى حين ؟ »

وأعانه ما قَدَر على إعانته ، ، فاذا جارُه لايلقاه من بعدها إلا حادَ عن الطريق ؛ وإن فى (الرجل الصغير) لقليلاً من سوء الظنّ ، وإن فيه لكثيراً من الحياء !

وهل يحيد الرجل عن طريقه إلا من عسرٍ يستحيى أن يستعلن ، وهل فى الناس — فيما يرى — مَن يجحد الفضل وينكر العارفة . . . ؟

وسأله صديق مرّة : « هل تعيننى على تأديب ولدى ؟ فمابى طاقةٌ على أن أدفعه الى معلم بالمال ؛ ومابى طاقةٌ أن أهمله من التعليم ! »

واهتزت نفس الفتى ، لأنه — فيما بدا له من صاحبه — قادرٌ على أن ينفع الناس مثل أبيه . وشَدا الولد من العلم ما شَدا ، فأنكر معلّمه وتنكر له أبوه !

وقال رجلنا لنفسه : « يا للأب المكدود ! لقد حَزَبته مشغلة العيال عن ذكرى ؛ ليته يستعينى على بعض أمره ! »

ومن أين للفتى أن يعلم بأن كل مبذول مَهين . . . ؟

* * *

وقال له واحدٌ من قرابته ينصحه : « هلاّ ادّخرت فضلَ اليوم للغد ؟ إن المال عَصب الحياة ، وجاه الرجولة ، ومطيةُ الأمل البعيد »

وابتسم (الفيلسوف الصغير) وهو يقول : « المال ؟ ما أحب أن أجعل المال خاتمة المسعى وغاية الجهاد ؛ إن البطن لشبرٌ فى شبر ، وإن الثوب لذراع فى ذراع ؛ أفيتسع البطن حتى يبتلع غلاّتِ ضَيعة ، أو تطول القامة حتى ما يكسوها إلا ثوبٌ بألف ، أو يتضاعف الجسم حتى ما يؤويه إلا بيت فى مساحة مدينة ؟ أنا هو أنا ياصديق ، غنياً أو فقيراً ؛ بطنى هو بطنى ، وثوبى هو ثوبى ، وبيتى هو ما امتدّ من قدمى الى رأسى حين أنام !

أىّ سخرية ! إن الفقير الذى يعوزه القرش ليستطيع أن

يقول قائلة الغنى الذى يملك المليون . وماذا يملك الغنىُّ مما يملك إلا أن يسرح الطرف فيقول : هذه ضيعتى وهذا قصرى . أفلا يستطيع الفقير أن يسرح عينيه معاً فيقول مثله : هذه ضياعى وتلك قصورى ؟ بلى يا صاحبى . إن الغنى لوهم من أوهام الناس ، وإن الفقير المعدم ليرى أنه يملك ما شاء أن يملك من الدنيا ما دام راضى النفس ! »

وافترقا وكلاهما يرثى لصاحبه !

* * *

وقالوا له : « هلاَّ التمستَ لك زوجةً تأوى إليها فتجمع ما تفرّق من أمرك ؛ لعلك أن تجد عندها راحةَ النفس وهدوء القلب ؟ »

قال : « حتى ألقاها فأعرفَها فيدلّني عليها قلبى . ما أريدها غنية ، فمالى وغناها وأنا عائلها وكاسبها ؟ وما أريدها جميلة ، فمالى وللجميلة تتوزّعها قلوبُ الناس وعيونهم ، ويتوزّعنى منها الشكّ والقلق ؟ وما أغلو فى طلب الفيلسوفة العالمة ، فأجمع على نفسى هماً بالليل وهماً بالنهار ! وما أريد أن تقول : (كان أبى ورَحمَ الله جدّى) ، فتملأ بيتى بأشباح الموتى وأطياف الهالكين ! بحسبى أن أجد الفتاة التى يخفق لها قلبى ويهدأ عندها حنينى . »

وخُيل إليه أنه وجدها بعد إذ أعياه المطاف ؛ فوهب لها قلبه ، وأخلص لها ودّه ، وكشف لها عن نفسه ؛ ونظرت الفتاة فى مرآتها ، ثم لَوَتْ عنه معجَبةً مزهوة !

أتراه وقد نالت منه بقسوة الصدّ ، وصَعر الخدّ ، وجفوة الدلال — قد أيقن أن المرأة لا تستوثق من حب صاحبها إلا غَلبتْ ، ولا تستمكن من زمامه إلا رَكبتْ . . . ؟

* * *

يا للمسكين ! لقد كان بريئاً طاهراً كالطفل ، وادعا مستكيناً كالحمل ؛ يحسب الناسَ كلّ الناس فى مثل براءته وطهره ، فما ينشد فيهم إلا المثلَ الأعلى الذى يراه فى نفسه ! وأين المثلُ الأعلى من هذا الناس ؟ أين هؤلاء الذين يرى ، من أناسىّ خياله ؟ وأين هذا الوجودُ من عالَم قلبه ؟

لقد منحهم حبه فهل لقى عندهم إلا الغدر ؛ وأصفاهم ودّه فهل رأى إلا الأثرة ؛ ومحضهم إخلاصه فهل عرف إلا الخديعة والمكر ؛ وألانَ لهم جانبه فهل وجد إلا الكبرياء وصعر الخدّ . . ؟

وأيقن (الرجلُ الصغير) أنه لم يكن فى هذا العالم غيرَ طفل كبير !

وعرف أخيراً أين أحلامه من اليقظة ، وأين أمانيه من الحقيقة ، وأين المثلُ العليا التى جَد ينشدها منذ كان صبياً فلم يجدها إلا فى نفسه . . . !

وراودته نفسه أن يكون بعض هذا الناس لعله يَلقى بعض أسباب السعادة ، فَرن الصدَى فى مسمعيه يرجّع قول أبيه : « ستكون أميراً يابنىّ ، فأحبّ الناس ، وهَبْ نفسك للجماعة ؛ إن السعيد من يعطى لا من يطلب العطاء ! »

وثابتْ إليه نفسه ، ونفذت الطمأنينةُ إلى قلبه فقال : « نعم إننى لأمير ، لأننى فوق الناس ، لأننى أُعطى ولا أستجدى ؛ وإننى لسعيد ، لأننى أملك الرضى ، ولأننى أملك أن أجعل الحياةَ جميلة ! »

وتلفت يَمنةً ويَسرة ، ونظر إلى الناس تتجاذبهم ضروراتُ الحياة ؛ ثم مضى على وجهه ، يمد عينيه إلى الهدف البعيد ، مستنيراً بالأمل ، مستعيناً بالرّضى ، مستيقناً أنه سيجد المثل الأعلى هناك ؛ عند الغاية من هذا الطريق !

وقالت له نفسه : « سِرْ يا رفيق على هداك حتى تبلغ ؛ لستَ من هذا الناس ؛ ما أنتَ فى الحياة إلا عابر سبيل . . . ! »

طنطا — محمد سعيد العريان